(٧٨)

"انتظار الخلاص"

كان متسرعًا فى كل شيء فى حياته بدءًا من قرارته غير المدروسة، ونهاية بعاداته وهواياته التى لم تكن تمكث معه طويلاً حتى يصاب منها بالملل، فلا يلبث أن يتركها منجذبًا لغيرها. وهكذا كان حاله مع طقوس العبادة، الذى يمكن وصفه بأنه ارتباط متقطع ومتلازم دائمًا مع غاية ما أوهدف بعينه، وما أن تتحقق هذه الغاية وذلك الهدف حتى يتجاهل الالتزام بما ألزم نفسه به من طقوس تعبدية إلى أن يهجرها برمتها جميعًا لحين تجدد غاياته وبزوغ أمنيات جديدة له.

لم يكن يتلمس روح أى شيء يُقبِل عليه، بل كان مكتفيًا بظاهر الأشياء، التى ما أن يقوم بتجربتها عن قرب، حتى يكتشف سطحية نظرته للأمور، وتسرعه فى الحكم الذى كثيرًا ما كان يوقعه فى مشاكل متتالية. وحتى هذه المشاكل لم يعتد أن يتحمل مسئولية حلها بنفسه، بل كان يلجأ لمن يتكفل بحلها نيابة عنه، إذ كان تسرعه الملحوظ مصاحبًا لما ينتظره من نتائج، أما كل ما هو بخلاف ذلك من عملٍ ودأبٍ واجتهادٍ وكفاحٍ من الممكن أن يُطلَب منه فكان يُقبل عليه بدرجة من البطء والتباطؤ يفقدان أى عمل قيمته ويمنعان حصاد ثماره.

وعندما وجد نفسه ذات مرة فى مواجهة حتمية مع الحياة، بلا كفيل أو وكيل أو نائب أرضى، عاد للارتماء بكل حمولته فى أحضان السماء، لعله يجد المَخرج الأخير الذى يخلصه من ضرورة المواجهة التى عكف على الهروب منها. وبدأ رحلته من جديد مع الدعاء من أجل الخلاص، والتى كان لابد فيها هذه المرة من التزامه بالصبر والإخلاص. ومع الدعاء وجد نفسه مضطرًا قبل الحصول على الخلاص أن يستدعى ما ألفته نفسه من كسل كان يبعده عن العمل وعن بذل أى مجهود، لعله يستطيع منحه القدرة على الصبر المطلوب لإجابة دعائه للخلاص والتخليص بسرعة على يد منقذ ومخلص يقذف له طوق النجاة بلا عناء منه أو اجتهاد.

ومع الانتظار، تباطأت حياته كلها بكل ما فيها حتى تحقيق الأمنيات الذى اعتاد أن يصل إليه فى الحال وبلا مجهود، والتهى طويلاً، فلم يفكر فى هروبه الدائم من المواجهة، ولم يلتفت إلى طفولته التى لم تنته بعد، والتى كان من ضمنها طفولته التعبدية التى تشبه التصاق الطفل المدلل بوالديه، وما يغمره من سرور عظيم كلما قاما أحدهما أو كلاهما بتلبية كل طلباته ورغباته بلا استثناء، وما يعتريه على النقيض من بكاء وغضب إذا رفضا كلاهما تحقيق مطلب واحد فقط من مطالبه الكثيرة.

ومع الاستغراق فى ملهاة الانتظار المبعِدة عن كل عمل تعلقًا بالأمل، لم ينشغل بالتفكير بعمق فى حاله هذا، بل كان كل ما يشغله هو البحث عن مخرج يقيه حتمية مواجهته لنفسه. ولأنه كان مُصرًا على الهروب منها كعادته، ظل هو ذلك الطفل المدلل، الذى حتمًا لن يجد منذ الآن من يهتم بتدليله، ولكنه

ألزم نفسه بالانتظار، وسيظل منتظرًا ما لن يأتيه أبدًا، مثل جميع من يودون الاستمرار فى مرحلة الطفولة والتدليل.

وبخلاف هؤلاء، هناك دومًا السعداء من البشر، الذين يسعون للنجاح فى حياتهم، والذين يدركون فى الوقت المناسب وقبل فوات الأوان أن الطفولة ليست سوى مرحلة تمهيدية فى حياة الإنسان تنتظر بفارغ الصبر الالتحام بالمرحلة الأكثر أهمية منها، وهى مرحلة النضج التى يجب فيها على الإنسان أن يتحمل مسئولية قراراته الناتجة عن اختياراته، فيتخلص من طفولة الانتظار– انتظار المنقذ وانتظار المخلص. وبدلاً من أمنية الانتظار هذه التى لا يضمنها أى يقين، يبدأ الإنسان من هؤلاء السعداء حياته الحقيقية على الفور، والتى يعتمد فيها على نفسه وعلى ما سيكتشفه من ملكاته، وما ستكشفه له الأيام من قدراته، فيسعى جاهدًا للتمسك بحريته وعدم التفريط فيها حتى يتمكن من الإمساك بزمام خياراته، وتحمل نتائج قراراته، والاستمتاع بحصيلة نجاحاته المعتمدة على تفعيله لمهاراته وقدراته.

وتلك هى الحياة الحقيقية التى لم يستطع كل منتظر لأملٍ بلا عمل أن ينعم بها. فلو لم تكن هناك حرية للإنسان تمكنه من الاختيار، لما كان مطلوبًا منه أى عمل أو تعمير للأرض، ولما كان لإرادته الحرة أى وجود، ولكان انتظاره للمخلص وللكفيل وللوكيل وللنائب بديلاً معقولاً عن قانون الحساب على العمل ثوابًا وعقابًا، ولتوقفت الحضارة البشرية عن أهم ما يميزها من تجدد وما تمتاز به من عطاء.